المسيرة المليونية إلى كربلاء .. رمز للوحدة الإسلامية المنتظرة

يستقبل محبو الحسين وعشّاقه شهري محرم وصفر بمزيد من الحزن والأسى لما جرى في كربلاء من مذبحة مروّعة تخجل له الأنسانية بحق حفيد النبي الأمين (ص) من الشرك والضياع والضلال، فكان أجر هذا النبي الأكرم هو قتل ابن بنته الحسين (عليه السلام) وسبي أهله وأصحابه وأخذهم مخفورين إلى مجلس يزيد اللعين، وفي يوم الأربعين يتّجه المحبون والموالون نحو كربلاء مشياً على الأقدام، كقليل من الوفاء لهذا الأمام الهمام. .

لقد واجهت هذه المسيرة المقدّسة عبر العصور لأقسى حملات التنكيل والتقتيل والخناق والتضييق حتى فُرضت جباية باهظة على الزائرين لكل من أراد زيارة الحسين، ولكن الزوار الكرام لم يمنعهم ذلك الظلم والجور والتعسف والحيف الكبير عن زيارة مولاهم وإمامهم العظيم.

وها هي الملايين اليوم في المسيرة الحسينية الخالدة تتقاطر من كلّ جهة نحو حرم الحسين (ع) وتطلق شعارات الذي تهزّ الأرض تحت أقدام الظلَمة والفاسقين.

ولقد دأب أعداء أهل البيت النبوي النيل من زوار الحسين وعشّاقه بشتى الأساليب ليلتحقوا بقتلة الحسين (ع) وجلاوزته في شتى العصور والأزمنة.

في عصرنا الحالي عصر الحرية والديمقراطية وإحترام الرأي الآخر، يحاول البعض ممن يفكرون باستمرار بحثاً عن ذريعة واهية، التعرض لزائري الحسين والمتّجهين لمرقده مشياً على الأقدام، بحججداحضة.

والزاحفون نحو كربلاء المشرّفة هم أمّة عريضة وليس طبقة أو فئة أو حزب أوعشيرة معينة، فيهم الطبيب والمهندس والمعلم والمحامي والأستاذ الجامعي والتلميذ والجندي والشرطي والفلاح والعامل وطالب العلم والتاجر والخطيب

والعالم من الرجال والنساء وكذلك الأطفال والكهول والشيوخ من العراقيين وغير العراقيين ومن العرب والأوربيين والأجانب، سواء من المسلمين والمسيحيين والصابئة وغيرهم، بل يقصد كربلاء في يوم الأربعين مَن يُعلِن إسلامهُ في أرض القداسة والطهر .

فالسائر في طريق الله يأتي من تلقاء نفسه ولم يرغمه أحد على ذلك، إنه ينوي التقرب إلى الله بهذا المسيرالشاق، فيتحمل التعب والعناء ويواصل السير ليل نهار.

وفي الطريق إلى كربلاء، مجالس ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، والسائرون يقيمون الصلاة في أوقاتها، ويستمعون إلى وعظ الخطباء والعلماء، حتى أن البعض يتعلم الصلاة في سيره إلى كربلاء.

وتنشأ بين السائرين إلى كربلاء، علاقات إيمانية وأخوية وثيقة ويستمر التزوار والتواصل فيما بينهم بعد العودة من كربلاء لأن البيئة التي حصلت فيها هي بيئة نقية صالحة.

وفي كربلاء، تقام ندوات وتعقد مؤتمرات أخلاقية وفكرية، وليس هناك أعظم من المؤتمر المليوني الحسيني العفوي الذي يقيمه زوار الحسين الذين أمّوا وجوهم نحو كربلاء من كلّ جهة وناحية.

والسير إلى كربلاء فيه من الفوائد النفسية والرياضية ما يكون علاجاَ فاعلاً للكثير من الأزمات والأمراض التي يسببها الخمول والكسل والكآبة والشعور بالوحدة.

والبعض يعلن توبته في الطريق إلى كربلاء، ويعاهد الله أن لا يرتكباً سوءاً ولا يقترف منكراً، وهو أفضل مكان مناسب لتذكير النفس بيوم الحساب.

والطريق إلى كربلاء يجمع المؤمنين، لأن الحسين للإنسانية جمعاء، وهو الذي حارب الفساد والظلم وقدّم أهل بيته ضحايا في سبيل إعلاء كلمة الحق خفّاقة.

توحيد المحبين والعاشقين في سبيل بناء مجتمع فاضل

تؤكد الوقائع الملموسة أن للحسين (عليه السلام) ما يجعل أقلوب الناس تهوي إليه، ويجتمع المؤمنون الواعون حوله، وأن لدى الحسين (ع) ما يشجّع الناس على الاقتراب من قيم الخير والسلام والعدل، ليتعاونوا على البر والتقوى والصلاح من أجل خير مجتمعاتهم والإنسانية جمعاء.

وامتداداً لنهضة الحسين، فإن زيارة الأربعين، دعوة متجددة للإصلاح والانتصار على النفس، فكانت –ولم تزل- مدرسة كبرى تخرِّج شهداءً وأحراراً، بحيث يتساءل الدواعش، في وسائل إعلامهم الخبيثة: لا ندري لماذا نفقد توازننا عند مواجهة هؤلاء الذين يرفعون راية (يا حسين)، فكأنهم لا يعرفون الخوف، فلمْ نهزمهم ولا بمعركة واحدة؟ نحن فقط نفجّر شبابنا ونقتل الناس غيلة وغدراً؟".

ولا شك أن الحب الجارف الذي يدفع الملايين لقطع مسافات طويلة مشياً على الأقدام، في الزيارة الأربعينية، وهم يتحدّون المخاطر والمتاعب، يوحّد المحبين والعاشقين في سبيل بناء دولة عادلة ومجتمع فاضل، ما يؤكّد ضرورة العمل الجاد لبلورة حبّ الحسين (عليه السلام) المتجذر في قلوب الحشود المليونية إلى الاقتداء بنهجه (ع) في شؤون الدين والدنيا.

في الزيارة الأربعينية قبل الماضية، سارت كاتبة ألمانية من النجف الى كربلاء المقدسة مع الزوار، مشياً على الأقدام، وقالت، إنه طريق مبهر وممتع وفريد، وأمران في هذا الطريق لا تجدهما في أي مكان آخر من هذا العالم، الأول، لا أحد يجوع، والثاني: لا تجد خصومة بين اثنين أبداً.

لقد أعطت مدرسة الحسين السامية كل هذه السجايا الحميدة، وكل هذه الإنجازات الزاكية، وكل هذه الانتصارات الساحقة، فكيف يكون الحال لو تمسّك أكثر بنهج سيد الشهداء (ع)، لاسيما أننا نعيش أوضاعاً صعبة، ونخوض حرباً مصيرية.

اكبر تجمع ديني واجتماعي ووحدوي عفوي في العالم

إن أتباع أهل البيت النبوي ومنذ عام ٦١ للهجرة وحتى يومنا هذا، يواظبون على الزيارة الأربعينية، رغم مواجهتهم للطغاة والجبابرة المستبدين الذين كانوا يمنعونهم من الوصول الى كربلاء، ودفع الكثير منهم حياته ثمناً لزيارة الحسين (ع)، حتى منّ الله عليهم عام ٢٠٠٣ م بالحرّية، ومنذ ذلك العام وحتى اليوم، تتضاعف أعداد زوار الأربعين، حتى يتعدّى ال ٢٥ مليون زائر من العراق ومن شتى أنحاء العالم.

وفي السنوات الأخيرة حاول الاعلام الصهيوني والعربي المشبوه، ليس فقط تجاهل هذه المناسبة العظيمة، بل حاول التشويش عليها، الا أن استثنائية هذه الزيارة المباركة في كل ناحية من نواحيها، أثارت اهتمام الرأي العام العالمي، مما جعل الكثير من وكالات الأنباء العالمية والفضائيات، تبعث مراسليها لتوثيق هذا الحدث المدوّي، والتحري عن عوامله وأسبابه.

ومن الصعب على العالم أن يمرّ من أمام هذه الظاهرة المليونية دون أن يقف مدهوشاً أمامها، للأسباب التالية: فهي اكبر تجمع ديني واجتماعي وسياسي ووحدوي عفوي في العالم، يحمل خطابات وشعارات بعيدة كل البعد عن الطائفية والعنصرية، وتدعو للانتصار للمظلوم ومقارعة الظالم، وتدفع للسلام والمحبة، وتنادي بالثورة ضد التكبر والغرور والغطرسة.

وهذه المميزات والخصائص، جعلت المسيرة الاربعينية تستقطب اهتمام الأجانب وغير المسلمين أيضاً، فهذه المخرجة الأميركية الشهيرة (كاثرين بيجلو)، وهي الحاصلة على جائزة الأوسكار، وفدت إلى العراق مع بداية

زيارة الاربعين الماضي لانتاج فيلمٍ عن هذه الزيارة تحت عنوان (الأربعين العظيمة).

وشرعت (بيجلو) بعملها في البصرة، بالانطلاق مع الجموع السائرة في بداية شهر صفر في كل عام، لتتمكّن من الوصول إلى كربلاء المقدسة، مشياً على الأقدام، وقاطعة مسافة نحو ٦٠٠ كيلومتر، حيث رصدت شركة ((سوني بيكتشرز إنترتينمينت)) للإنتاج السينمائي العالمية في هوليود، ميزانية لإنتاج الفيلم تبلغ ٢٠٠ مليون دولار.

بدأت تؤثر على الرؤى والقناعات والسلوك الفردي والاجتماعي، لدى المشاركين فيها، الامر الذي يؤهلها لتكون عاملاً هاماً في التأثير على تعديل الفكرة العالمية عن المسلمين.

لزيارة الأربعين سحر إلهي خاص

والحقيقة إن الزيارة الأربعينية، ظاهرة فريدة من نوعها، لم يشهد التاريخ الانساني لها مثيلا، لا لا في الأمم الغابرة ولا في الأديان السابقة ولا حتى في العصر الراهن، وقد حيّرت هذه الظاهرة، العلماء والحكام على مر الأزمنة، لأنها حدث فذّ لا نظير له مطلقاً .

وكان بالإمكان أن تتلاشى وتندثر، وتتحول الي مادة للدراسات التاريخية شأنها شأن العديد من الظواهر الاجتماعية والاحزاب والمذاهب الدينية والسياسية، التي اضمحلت واندثرت على مر التاريخ، لو كانت هذه الظاهرة كالظواهر الأخرى، غير أن من الصعب على الانسان تخيل أن يتوجه كل عام ملايين الناس من مختلف انحاء العالم الى مدينة كربلاء وهم يخاطرون بأرواحهم، تلبية لنداء الحسين الخالد: هل من ناصر ينصرني.

تُرى من الذي يدفع هؤلاء الناس أن يتركوا بلدانهم ومدنهم وأعمالهم ومنازلهم وأسرهم، ويسيرون مئات الكيلومترات على الأقدام في الليل والنهار، ليلتقوا عند ضريح أبي الاحرار؟ ومن الذي يدفع الآلاف من الناس أن ينفقوا من مالهم الخاص، ويقدّموا الخدمات من وكل ما تحتاجه هذه الملايين من البشر الزاحفة نحو كربلاء؟ ومن الذي يدفع الآلاف من الناس، وهم من عوائل ثرية وحتى من أصحاب المناصب والاكاديميين، أن يكونوا خدَمَة لهؤلاء الزوار، ويسهروا علي راحتهم، ويعتبرون ما يفعلونه فخراً ؟.

ولا ريب إن هذه الظاهرة هي ظاهرة الهية، أريد لها أن تستمر، وفي هذا السياق ندرك كلمات بطلة كربلاء السيدة زينب الكبرى وهي تخاطب يزيد في بلاطه: فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا.

وفي هذا النطاق، تقول الكاتبة الإنكليزية (فريا ستارك): أن الشيعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي، يحيون ذكرى الحسين ومقتله ويعلنون الحداد عليه وما تزال تفصيلات تلك الوقائع واضحة جلية في أفكار الناس إلى يومنا هذا كما كانت قبل ١٢٥٧ سنة، وليس من الممكن لمن يزور هذه المدن المقدسة ان يستفيد كثيراً من زيارته ما لم يقف على شيء من هذه القصة لأن مأساة الحسين تتغلغل في كل شيء حتى تصل إلى الأسس، وهي من القصص القليلة التي لا استطيع قراءتها قط من دون أن ينتابني البكاء.

ويقول المفكر والكاتب المسيحي المعروف (أنطون بارا): إن زيارة الأربعين يعجز الانسان عن وصفها، إن لهذه الزيارة سحر إلهي خاص، يعجز العقل عن استيعاب فكرة ملايين من الناس يتركون منازلهم ويقطعون آلاف الكيلومترات قاصدين زيارة الحسين عليه السلام والتبرّك بالشباك المقدس، والناس متحابين فيما بينهم لا ترى سوى الإحسان والخدمة الجميلة التي تزداد سنة بعد أخرى.

والواقع فقد شكّلت النهضة الحسينية، مادة للبحث العلمي لدى الكثير من والباحثين والدارسين منذ القدم، فقد وجدوا فيها مادة تستحق البحث والتنقيب، فانطلقوا من وصف المظاهر إلى التعمّق في المعاني المتجلية من هذه الشعائر المقدّسة، فتكلّموا بلسان من يفهم هذه القضية ويعيش عمق معانيها.

وليس ذلك بالأمر العجيب، فالثورة الحسينية، ليست حكراً على طائفة أو فئة، وإنما هي ثورة عالمية، انطلقت من كربلاء وامتدت على طول الزمان والمكان، ولعبت دوراً مؤثراً وكبيراً في العديد من منعطفات التاريخ.

تظاهرة جماهيرية سلمية ليس لها نظير في العالم أجمع

كما أكدنا آنفاً، تُعدّ المسيرة الأربعينية إحدى الممارسات الروحية السامية التي توحّد صفوف الناس وتؤلّف بين قلوبهم، ففي هذه المسيرة المشرِّفة يشارك الملايين في تظاهرة جماهيرية سلمية عظيمة لا تشبهها أية تظاهرة ومسيرة في العالم أجمع، تتحرّك فيها الجماهير المتقاطرة من كل حدب وصوب، ومن مختلف أنحاء العراق والعالم العربي والإسلامي، بل ومن شتى الدول الأوروبية وبقية دول العالم.

وفى هذه التظاهرة الفريدة، يشترك الجميع في الصلاة والدعاء من كل بقعة من بقاع الأرض، كما يشارك فى هذه التظاهرة نخبة من أهل الأديان والعقائد، ومنهم المسيحيين، يتبادل فيها السائرون، الأحاديث الإنسانية والروحية المختلفة، ويتبادلون الثقافات والأفكار فيما بينهم، وبالتالي فالمسيرة هي بمثابة دعوة الى الله تعالى، وتعريفهم بتعاليم الإسلام الحقّة، وإلى محبة آل البيت النبوي، وهي أيضاً دعوة للتطهّر والتحرّر من آثام النفس وربقتها، والتطلع الى القيم الفاضلة التي يدعو إليها الإسلام الخالد.

ومن القواعد التربوية المهمة في المفهوم الحسيني، قاعدة (الايمان بالوعد الالهي)، فمن أراد النصر عليه ان يطلبه من مصدره الحقيقي، ومصدر النصر الله، ولا يمكن أن يأتي من المعدات المادية والعسكرية، وهذا من

أساسيات الثقافة القرآنية الأصيلة، وقد اوضح القرآن ذلك في العديد من آلايات القرآنية، منها قوله تعالى: (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)، وإذا آمن الانسان بهذة الحقيقة الناصعة، لن يلجأ إلى غير الله فى إبتغاء النصر، وقد وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر في تحرّكهم وقتالهم وأنه سوف ينصرهم: (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)، وهذة الثقافة تبدو جليّة في كربلاء، فقد جاء فى زيارة الاربعين: (وأشهد أن الله منجز ما وعدك)، وبالفعل تحقّق هذا الوعد وانتصر الحسين على الطاغية يزيد .

وليس معيار الهزيمة والنصر، هو حرق البيوت والقتل وسلب الأموال وسبي النساء والأطفال، وإنما المعيار ديمومة الدين وسلامته واستمرار النهج القويم وتحقيق الهدف السامي، وهذا ما حقّقته الثورة الحسينية الرائدة، عبْر الدفاع عن المبادئ الاسلامية التي من أجلها استشهد الحسين (ع) في الكرامة والعدل والحرّية وتطبيق الشرع الاسلامى السمح، والتمسّك بأوامرها ونواهيها في هذه الحياة .

عموماً، تحظى الزيارة الأربعينية التي يشارك فيها ملايين الناس من أتباع مختلف المذاهب الإسلامية وغير الإسلامية من شتّى أنحاء العالم في كل عام، بأهمية خاصة لما تتضمّنه من أبعادٍ دينية واجتماعية وثقافية وروحية، فضلاً عن الأبعاد السياسية التي تلقي بظلالها الإيجابية على عموم شعوب المنطقة والعالم.

دورة تدريبية لكل الحضور لتربية أنفسهم على أرقى المستويات

وأخيراً لابد من التأكيد أن الزيارة الاربعينية والسير فى طريق كربلاء، تتضمن الكثير من دروس التربية والتعليم ولا نستطيع توضيحها بعمق، لأنه لا يفهمها الا من حضر شخصياً تلك الزيارة، وشاهد الاخلاق الفاضلة، وأسمى أنواع التواضع، وأفضل صور السخاء والمواساة والعطاء، واكبر نماذج التضحية والفداء، فالانسان هناك فى هذا الطريق، يقدّم أغلى ما يملك،

ليحصل على كل شيء عالي المستوى، ولذا يمكن تسمية طريق الحسين (ع) بأنه طريق الجنة، وهو ارقى مستوى يمكن ان تصل اليه البشرية.

فالمسيرة الاربعينية، هي دورة تدريبية لكل الحضور لتربية أنفسهم على أرقى المستويات، وهذه هي الميزان الحقيقى والدرجة المطلوبة من الأخلاق التى ينبغي أن يتربّى عليها المجتمع الذي سيكون مؤهلاً لاستقبال الإمام المهدى.

وذلك لأنّ الإمام المهدى المنتظر سيظهر في مجتمع ذي خصال وسمات تختلف عن باقي الأمم والشعوب، وهى الأمور التي تؤهّله لاستيعاب وفهم وتطبيق الاحكام التي سيأتي بها الإمام الحُجّة، فنحن بحاجة إلى تقديم النموذج الأسمى من جميع الجهات الانسانية والثقافية والحضارية والاجتماعية .

فالامام الحسين الشهيد يقود هذا التجمّع المليوني نحو هدف واضح المعالم، وغاية مرسومة بالغيب، ربما قد لا يدرك الأفراد الموجودون فى هذه المسيرة، أنهم يتعرّضون للتمحيص والاختبار، وأن الإمام الحسين يشحذ هممهم من أجل الاستعداد لتقديم العطاء الاكبر فى حركة الامام المهدى.

في المجتمع المهدوي اللأمّة بحاجة إلى أشخاص متطوّعين لعمل الخير، بل أن يكون لديهم الاستعداد الكامل دون أن يطلب منهم أحد فعْل ذلك، وهذه ميزة أساسية فى المجتمع الذي سيقيم أسسه الامام المهدي.